الباب السادس عشر

في كيد النساء

أخبار هند والحجاج:

فمن الكنايات اللطيفة، ما يروى أن هند ابنة النعمان كانت من أجمل نساء زمانها، ومن الفصيحات، فوصفت للحجاج بن يوسف الثقفي، فأنفذ إليها من يخطبها له، وبذل لها مالاً جزيلاً، وتزوج بها، وشرط لها على نفسه أن يدفع بعد الصداق مائتي ألف درهم، فوافقت على ذلك، فدخل بها، ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة.

وكانت هند فصيحة أديبة، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق، فأقامت معه، ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام، وهي تنظر في المرآة وتقول منشدة:

وما هند إلا مهرة عربية سليلة أفراس تحللها بغل
فإن ولدت فحلاً فللّه درُّها وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل

فأنصرف الحجاج راجعاً، ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج ابن يوسف طلاقها، فأرسل إليها عبد الله بن طاهر، وأرسل لها معه مائتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه.

وقال له الحجاج: يا ابن طاهر، طلقها بكلمتين، ولا تزد عليهما، فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها: يقول لك الأمير أبو محمد الحجاج بن يوسف: كنت فبنت، وهذه المائتا درهم التي كانت لك عليه.

فقالت هند: إعلم يا ابن طاهر، إنّا والله كنّا فما حدنا، وبنّا فما ندمنا، وهذه المائتا درهم التي جئت بها، بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف.

أخبار هند مع أمير المؤمنين:

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها، ووصف له جمالها وفصاحتها وأدبها، فأرسل إليها يخطبها.

فأرسلت إليه هند كتاباً، تقول فيه بعد التحية والثناء عليه: إعلم يا أمير المؤمنين، إن الإناء ولغ فيه الكلب، فلما قرأ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الكتاب ضحك

من قولها. وكتب إليها: يقول الرسول الكريم ﷺ: (إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهن بالتراب)، فغسلي الإناء يحل الإستعمال.

فلما قرأت هند كتاب أمير المؤمنين ، لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد التحية والثناء عليه: يا أمير المؤمنين، والله لا أحل العقد إلا بشرط، فإن قلت ما هو هذا الشرط؟

قلت: الشرط أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشياً حافياً بحليته التي كان فيها أولاً، فلما قرأ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ذلك الكتاب ضحك ضحكاً شديداً.

ثم أنفذ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف،وأمره بذلك، وإلى هند يأمرها بالتجهز فتجهزت، وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند، فركبت هند في محمل الزفاف، وركب حولها جواريها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه، وتضحك مع الهيفاء خادمتها، ثم إنها قالت للهيفاء: يا هيفاء، اكشفي سجف المحمل، فكشفته فوقع وجهها في وجه الحجاج فضحكت عليه.

ولم تزل تضحك، وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة، فرمت بدينار على الأرض، ونادت يا جمَّال إنه قد سقط منّا درهم فابحث عنه، فإن وجدته فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض باحثاً عن الدرهم، فلم يجد إلا ديناراً، فقال إنما هو دينار، فقالت : بل هو درهم، قال الحجاج بل هو دينار.

فقالت هند : الحمد لله سقط منا درهم، فعوضنا الله بدلاً عنه ديناراً، وهي تقصد، ما فقدنا إلا درهما وهو الحجاج بن يوسف،وعوضنا الله بدلاً عنه أمير المؤمنين، وهو الدينار، فخجل الحجاج وسكت، ولم يحر جواباً، ثم دخل الحجاج بها على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فتزوجها.

وصدق الله العظيم حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [سورة يوسف: ٢٨] وقال في معرض الحديث عن الشيطان: فقال تعالى: ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: ٧٦].

لقد كان تدبير هند لدى الحجاج بن يوسف تدبير انتقام، فكان تصرفها أعظم وأقوى وأنكى لخضوع الحجاج لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لإرغام الحجاج قيادة محمل هند من معرة النعمان إلى دمشق عاصمة الخلافة الأموية، إنها المكيدة المدبرة ،ولعبت به عندما أسقطت ديناراً زاعمة بأنه درهم، معرضة بذلك عن الحجاج الطاغية، وتعريضاً بأمير المؤمنين بأن الله عوّضها ديناراً عن الدرهم.